قيمة الإنسان وغاية وجوده

في ضوء القرآن والسنة

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى

للإنسان في الإسلام قيمة كبيرة، ومكانة رفعيهه، نوه بها القرآن الكريم، ونوهت بها السنة النبوية وأشاد بها علماء الإسلام في كل اختصاص.

فالإنسان هو المخلوق الذي كرّمه الله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ (سورة الإسراء: ٧٠)

وجعله في الأرض خليفة له، حيث قال للملائكة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (سورة البقرة: ٣٠)

وسخر الكون من فوقه ومن تحته ومن حوله ليكون في خدمته: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ (سورة الجاثية: ٣)

تحدث القرآن عن الإنسان وخصائصه ورسالته وأحواله في عشرات، بل مئات من آياته.

وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ - وكانت خمس آيات - لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه - علاقة الخلق والتكريم، وعلاقة الهداية والتعليم - واختارت الآيات لفظ «الرب» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال. هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق: ١ ٥).

والحق أن القرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

حقاً إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه، إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي؟

وقد نسب إلى الإمام علي رضي الله عنه قوله يخاطب الإنسان :

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر !!
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العلم الأكبر !

وحقا إن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة في صحراء الأزمنة الجيولوجية البعيدة الضاربة في أغوار القدم، ولكن المؤمنين : يوقنون أن الموت ليس نهاية الإنسان، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لانهاية له، إلى دار الخلود. . إلى حيث يقال للمؤمنين : ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ (سورة الزمر : ٧٣).

ويقول عمر بن عبد العزيز : خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار!

مكانة الإنسان من الله :

وفي آيات كثيرة من سور شتى، بينّ القرآن قرب الإنسان من الله سبحانه، وقرب الله تعالى من الإنسان، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان، الذين جعلوا من أنفسهم، «حجّابا» على «أبواب» رحمة الله الواسعة، والله يعلم إنهم لكاذبون. قال الله في القرآن : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (سورة البقرة : ١٨٦).

فالله تعالى - مع علوه على خلقه - قريب منهم، بل هو معهم أينما كانوا كما قال سبحانه ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (سورة الحديد : ٤). ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ (سورة البقرة : ١١٥).

ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديثه عن ربه : «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني : إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» (١).

---

(١) رواه البخاري، في كتاب التوحيد، ومسلم في الذكر والدعاء، انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث (١٧١٣).

وحتى العصاة المسرفون على أنفسهم ليس بينهم وبين الله تعالى حجاب : ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ (سورة الزمر : ٥٣).

فرغم عصيانهم وإسرافهم على أنفسهم لم يحرمهم من شرف انتسابهم إليه وناداهم : «يا عبادي».

مكانة الإنسان في الملأ الأعلى :

أما مكانته هناك في الملأ الأعلى - عند العوالم الروحية العلوية - فهي مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين، وتطاولت إليها نفوسهم فما أوتوها. فإن المخلوق الذي اختار الله تعالى له هذه المكانة - خلافة الله في الأرض - هو الإنسان : «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نُسبح بحمدك ونُقدس لك، قال : إني أعلم ما لا تعلمون». (سورة البقرة : ٣٠).

ويذكر القرأن أن الله تعالى عقد امتحاناً بين آدم والملائكة، ظهر به فضل آدم وتفوقه في مجال العلم والمعرفة، فقد علّمه الله الأسماء كلها، على حين لم يمنح ذلك للملائكة» (٢).

والعلم بالاسم يقتضى العلم بالمسمّى، ومعنى هذا أن الله علّمه خصائص الأشياء في عالمه، لأنه سيتعامل معها.

هذا وقد أراد الله أن يُكرّم هذا النوع في شخص الإنسان الأول، ويحتفى به، ويظهر مكانه في تلك العوالم الروحية، فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد وتستقبله بانحناءة إجلال وإكبار : ﴿إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلاّ إبليس﴾ (سورة ص ٧١-٧٤).

---

(٢) انظر : (سورة البقرة : ٣١، ٣٢).

لقد تمرد إبليس على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان، ودفعه الحسد والغرور أن أبى واستكبر وكان من الكافرين. واتخذ من الإنسان موقف التحدي والعداء. فماذا كانت عاقبة هذا العدو المبين؟ كانت كما ذكر القرآن ﴿قال: فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين﴾ (سورة ص: ٧٧، ٧٨).

وتلك هى مكانة الإنسان في العوالم الروحية.

مكانة الإنسان في هذا العالم المادي:

أما مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض فهو مركز السيد المتصرف الذي سخّر كل ما في هذا العالم لنفعه ولإصلاح أمره، وكأن كل شيء في هذا الكون قد «نسج» من أجله و«فصّل» على«قده» تفصيلاً، ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحث بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها﴾ (سورة إبراهيم: ٣٢-٣٤).

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (سورة لقمان: ٢٠).

وتلك هي مكنة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه.

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكان السامية، وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر؟

إنه سر القبس الذي هو فيه من نور الله، والنفخة التي فيه من روح الله.

تلك النفخة التي جعلته مستعداً للخلافة في الأرض، مستعداً لحمل الأمانة الكبرى، أمانة التكليف والمسئولية، تلك التى صورها القرآن تصويراً أدبياً رائعاً حين قال ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض، والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ (سورة الأحزاب: ٧٢).

لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يُقرّب إلي الله سبحانه وتعالي».

«وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومى إليها قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) إذ بين أنه أمر ربّاني خارج عن حد عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ (سورة ص ٧٢). ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ (سورة ص: الآية ٢٦) (٣) إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلاّ بتلك المناسبة. وإليه يرمز قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» (٤) حتى ظن القاصرون أن لاصورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، فشبهوا، وجسموا، وصوروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً - وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى: ﴿مرضت فلم تعدني! فقال: يارب وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان، فلم تعُده، ولو عدته لوجدتنى عنده﴾ (٥).

وهذه المناسبة لاتظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي (٦): «لايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به» (٧).

ويقول الإمام ابن القيّم: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرّمه وفضّله وشرّفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته، وقرّبه وأكرمه بما لم يعطه غيزه، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما

---

(٣) الظاهر أنه يقصد آية البقرة: ٣٠ «إنى جاعل في الأرض خليفه» كما يبدو من تعقيبه على الآية. أما الآية التى ذكرها فهي خطاب من الله لداود عليه السلام.

(٤) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة كما في الجامع الصغير، الحديث رقم ٣٩٢٨ مع فيض القدير.

(٥) رواه مسلم، وليس في أنه خطاب لموسى بل أوله: يقول الله عد وجل يوم القيامة: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى... الخ.

(٦) رواه البخاري.

(٧) من كتاب «إحياء علوم الدين» ربع المنجيات ص ٢٦٣.

بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له. وجعلهم حفظة له في منامه، ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه. وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار. وجعلهم معدن أسراره. ومحل حكمته وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار. فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني فإنه خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، وأشهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين واتخذه عدواً له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به» (٨).

منزلة الإنسان المؤمن خاصة:

وإذا كانت هذه هي منزلة الإنسان في الوجود، من حيث هو إنسان، فإن منزلته تعلو وتعظم، حينما يؤمن بالله تعالى، وبرسالاته، ويؤمن بلقائه وحسابه في الدار الآخرة.

إن هذا الإنسان المؤمن هو روح الحياة، وإكسير العالم، وهو خير البرية وأفضل الخليقة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ (سورة البينة: ٧).

إنه المخلوق الذي جعله الله له ولياً ﴿الله ولي الذين آمنوا، يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (سورة البقرة: ٢٥٧).

---

(٨) مدارج السالكين جـ١/ ٢١٠، ط. السنة المحمدية.

هذا الاستعداد في الإنسان هو الذي جعل مصيره بيده - بعد أن يسَّر الله له سُبل الهداية، وأزاح عنه كل الأعذار : ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ (سورة القيامة : ١٤). ﴿ونفْس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساهَا﴾ (سورة الشمس : ٧ : ١٠).

لقد سما الإسلام بالإنسان، فاعترف به كله : روحه وجسده، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، غرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة. لم يضع في عنقه غلاً، ولا في رجله قيداً، ولم يحرم عليه طيباً، ولم يغلق في وجهه باب خير، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، بل خاطبه خطاباً مباشراً ﴿يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقلك فسواك فعدلك، في أيّ صورة ما شاء ركبك﴾ (سورة الانفطار ٦-٨)

﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ (سورة الانشقاق : ٦).

علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان :

هذه صورة سريعة، ولكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن وقد أشاد بهذه المكانة الإنسانية كل أئمة الإسلام وعلمائه في مختلف البيئات والاختصاصات.

يقول الفقيه أبو بكر بن العربي : «ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً، قادراً، متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً وهذه هي صفات الرب جلا وعلا».

ويشرح الإمام الغزالي في «إحيائه» أسباب محبة العبد لله تعالى، فيذكر منها المناسبة والمشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل، وهى مناسبة باطنة «لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر» قال : فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية؛ حتى قيل «تخلقوا بأخلاق الله» وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الاليهة من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخيروالرحمة علي الخلق، والنصيحة

وخصه سبحانه بمعيته – معية الحفظ والتأييد – فقال : ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ (سورة الأنفال : ١٩).

وهو الذي تكفل الله بنصره والدفاع عنه ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (سورة الروم : ٤٧) ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ (سورة الحج : ٣٨).

وهو الذي وعد الله أن ينجيه من الشدائد والكربات وإن تفاقمت كما نجى يونس من بطن الحوت ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (سورة الأنبياء : ٨٨).

وهو الذي يُنزل ملائكته لتؤيده وتشد أزره ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ (سورة الأنفال : ١٢).

وهو الذي أعد الله له جنته ودار مثوبته، ومظهر رضوانه ومحبته ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (سورة الحديد : ٢١).

أثر هذه الفكرة في حياة الإنسان :

لا ريب أن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله، ومكانته في الملأ الأعلى، ومركزه القيادي في هذا الكون – وخصوصاً بعد إيمانه بالله تعالى – يجعله يشعر بذاته، ويغالي بقيمة نفس، لأنه يعتز بانتسابه إلى الله، وارتباطه بكل ما في الوجود، فيحيا عزيز النفس، عالي الرأس، أبياً للضيم، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ، وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة، إنه كسب كبير ومغنم ضخم للإنسان، كسب له في عالم الشعور والتصور، وفي عالم الواقع والسلوك.

وما أعظم الفرق بين رجلين : يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد (حيوان) من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور، وليس له بعد موته امتداد وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به. ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله في الأرض، ونائبه في إقامة الحق وإفاضة الخير وإشاعة الجمال في هذا

الكون! ويشعر بأن الكون كله في خدمته، والملائكة الكرام في حراسته، وأن رب الوجود في معيته، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن وجوده لاينتهى بالموت، وداره لاتنتهى بالقبر، فإنما خلق اللخلود وللأبد الذي لا ينقطع ولا يزول.

إن هذا الشعور الأصيل، الذي بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان في الكون عامة، ومنزلة المؤمن خاصة، هو أحد النقاط الرئيسية التي تخالف فيها عقيدة الإسلام التفكير المادي الذي يسود الحضارة المادية اليوم في النظرة إلى الإنسان (٩).

الإنسان هو المقصود من خلق العالم :

ويبدو للمتأمل في آيات القرآن الكريم أن خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وابتلاءه بالتكليف، وترتيب الثواب والعقاب عليه، - وخصوصاً الثواب للمؤمنين الصالحين - هو الغاية من خلق العالم كله : علويه وسفليه، أو بتعبير القرآن : سمواته وأرضه.

يقول تعالى في آخر آية من سورة الطلاق : ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾.

الغاية المعرفية للإنسان :

فالخطاب في الآية للمكلفين من بني الإنسان، والغاية واضحة، في الآية الكريمة، دلت عليها لام التعليل (لتعلموا). فالغاية إذن من خلق هذا العالم الرحب الضخم - الذي يسكن الإنسان في جزء منه صغير صغير، هو كوكب الأرض، من مجموعته الشمسية، التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا الكبيرة،

---

(٩) انظر : فصل : (الإيمان وكرامة الإنسان) من كتابنا (الإيمان والحياة) ص ٥١ وما بعدها، ط. مؤسسة الرسالة بيروت، وفصل (الإنسانية) من كتابنا (الخصائص العامة للإسلام)، نفس الدار المذكورة.

التي يسمونها (سكة التبانة) والتى هي أيضاً جزء صغير صغير بالنسبة لمجموع العالم الذي يحتوى على ملايين المجرات الأخرى · هي معرفة المكلفين المخاطبين بالقرآن رب هذا العالم وخالقه : معرفته بأسمائه الحُسنى، وصفاته العليا، التي دل عليه خلقه لهذا الكون، وتدبيره له، وإحكامه لكل ما فيه، على أدق نظام، وأروع تنسيق. وأبرز الصفات الدالة على ذلك : صفة القدرة الشاملة، وصفة العلم المحيط، ولهذا قالت الآية معلّلة ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾.

فلا يطمع الإنسان أن يعرف ذات الله تعالى، ويدرك حقيقتها. فهذا تطلع إلى ما لايمكن له. كيف وهو لم يدرك حقيقة ذاته هو، ولم يحط بحقيقة (الروح) التى بها يحيا، ولم يعرف تماما كيف يعمل العقل؟ إلى حد أن ألف أحد أقطاب العلم كتاباً سماه «الإنسان ذلك المجهول» (١٠)!

إن كثيراً من الحقائق الماية لم يعرف الإنسان إلى اليوم كنهها، إنما يعرف آثارها، فكيف بشأن الألوهية العليا، التى تحيط بكل شيء، ولا يحيط بها شيء؟ إن كل ما يطلب من الإنسان - وما يمكنه - أن يعرفها من آثارها، ولا يتجاوز ذلك، فيغرق في بحر لا قرار له ولا ساحل. ومن ثم جاء في الحديث «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله» (١١) «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله» (١٢).

ويقول القرآن : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (القرة : ٢٥٥). ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾ (سورة طه : ١١٠).

---

(١٠) هو الدكتور الكسيس كاريل الحائز على جائزة (نوبل) في العلوم.

(١١) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس، كما في الجامع الصغير للسيوطي وسنده ضعيف جداً.

(١٢) رواه أبو الشيخ في العظمة، والطبراني في الأوسط، وابن عدي في الكامل، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، كما في الجامع الصغير، والحديث ضعيف الإسناد، وقد حسنه الألباني بتعدد طرقه، وذكره في صحيح الجامع الصغير، مع أن طرقه كلها شديدة الضعف، على أن معناه صحيح.

وقد حاول بعض مفكري المسلمين ومتكلميهم أن يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أن يغرقوا، فابتعدوا عنه، وحذروا منه.

يقول الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ - ١٢١٠م) صاحب التفسير الكبير والكتب الشهيرة في (الأصولين) : أصول الدين وأصول الفقه، بعد أن حصل أفكار المتقدمين والمتأخرين :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتغمغم!
ما للتراب وللعلوم، وإنما يسعى ليعلم أنه لايعلم؟!

وينشد الإمام الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ - ١١٥٣م) في أول كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام) :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرّحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذَقَن، أو قارعا سن نادم

وصرح بذلك الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ - ١١١١ م) في (الإحياء) وصنف فيه، وجود القول فيه في مقدمات كتابه (المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى)

ومن الصوفية اشتهر عن أبى القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ، ٩١٠ م) أنه كان يقول : لا يعرف الله إلا الله!

والمعتزلة - على خوضهم في بحار الإلهيات - نجد منهم مثل العلامة ابن أبى الحديد (ت ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م) في شرحه كتاب (نهج البلاغة) المنسوب للإمام علي رضى الله عنه، يتعرض لهذه القضية في مواطن من شرحه، ويذكر فيه كلمات بليغة نثراً وشعراً مع توغله في علم الكلام، ومن شعره يخاطب الفلاسفة :

هل انتموا إلا الفرا ش رأى السراج وقد توقد
فدنا، فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد

وقال أيضا يخاطب الذات الإلهية :

سافرت فيك العقول، فما   ربحت إلا عنا السفر
فلحا الله الألى زعموا   أنك المعلوم بالنظر
كذبوا إن الذى زعموا   خارج عن قوة البشر (١٣)!

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني الشهير بابن الوزير (ت ٨٤٠هـ، ١٤٣٦م) بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها :

ودع عنك هؤلاء كلهم، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه : ﴿ولا يحيطون به علما﴾ (سورة طه : ١١٠) ولا أوضح من القرآن إذا أجير من التأويل بغير برهان.

وكيف نتأول ذلك، وهذا رسول الله ﷺ - وهو المبين لكتاب الله - يقول في هذا المقام : «سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (١٤).

هذا وهو أفصح وأعلم من ترجم عن ممادح ربه سبحانه، وهو المؤتى في ذلك لجوامع الكلم وحسناها وأنفسها عند الله وأسناها، وهو المخاطب بقول الله تعالى : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما﴾ (النساء : ١١٣).

فاعترف عليه السلام بقصور عبارته عن بلوغ المرام في هذا المقام، فكيف بسائر الأنام؟! (١٥).

هذا هو مكان الغاية المعرفية للإنسان من خلق العالم، كما دلت عليه آية ﴿لتعلموا أن الله على كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما﴾.

---

(١٣) ذكر هذه الأقوال كلها وغيرها العلاّمة ابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ) فى كتابه (إيثار الحق على الخلق) ص ١٣٩ . ط . دار الكتب العلمية ببيروت.

(١٤) رواه مسلم في صحيحه (٤٨٦) كتاب الصلاة وأبو داود (٨٧٩) وابن ماجة (٣٨٤١) من حديث عائشة «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولم أجد في الأصول لفظ «سبحانك» وهي مشتهرة على الألسن. وقد روي من حديث علي أيضا في اليوم والليلة للنسائي (٨٩١) وفيه انقطاع - وابن ماجه (١١٧٩).

(١٥) انظر : إيثار الحق على الخلق ص ١٤٠، ١٤١ ط . دار الكتب العلمية، ببيروت، لبنان.

والاستدلال بهذه الآية الكريمة في آخر سورة الطلاق يغني عن الاستدلال بالحديث القدسي الذي يذكره بعض الصوفية في كتبهم، وهو «كنت كنزاً لا يعرف فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً، فعرفتهم بي، فعرفونى» وفي لفظ : «فتعرفت عليهم فبي عرفوني».

فالحديث لا أصل له عند أئمة الحديث (١٦)، وإن قال بعض كبار الصوفية مثل محيى الدين ابن عربي : صح عندنا كشفا، وإن لم يصح سنداً (١٧)، فالأحاديث لا تثبت عن طريق الكشف والإلهام، بل بالسند الصحيح المتصل، السالم من الشذوذ والعلة، وهذا ما أجمعت عليه الأمة.

على أنه لا حاجة إلى هذا التكلف، والآية صريحة الدلالة على المراد.

وبعض العلماء استدل بالآية الأخرى من سورة الذاريات، وهي قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الآية ٥٦).

وقد فسرها مجاهد بقوله : إلا ليعرفون (١٨).

الغاية العملية للإنسان :

وإذا كان هذا هو مكان الغاية المعرفية للإنسان من خلق العالم، فهناك غاية عملية أخرى، عبر عنها أيضا القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ (سورة هود : ٧)

والخطاب في الآية كذلك للمكلفين من بني الإنسان، والغاية من خلق السموات والأرض، كما دلت عليها لام التعليل - ظاهرة كذلك، وهى هنا غاية عملية

---

(١٦) قال ابن تيمية : ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي وابن حجر في اللآلىء والسيوطي وغيرهم.

وانظر : كشف الخفاء للعجلوني جـ ٢ ص ١٣٢ والمقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٢٧، ومختصره للزرقاني ص ١٦٠ وتمييز الطيب من الخبيث ص ١٢٢ وغيرها.

(١٧) نقل ذلك الأستاذ غراب في كتابه عن الشيخ محيى الدين بن عربي

(١٨) انظر تفسير الآية في تفسير الفخر الرازي والقرطبي.

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وهو تعبير قرآني له إيحاؤه ودلالته. فالله خلق السموات والأرض جميعا، ليختبر الناس المكلفين: أيهم أحسن عملا. فهم خلقوا ليعملوا، بل خلق العالم كله من فوقهم وتحتهم ليعملوا.

الإنسان لم يُخلق إذن لمجرد أن يأكل ويتمتع. إن الإسلام لم يحرم عليه أن يأكل من الطيبات، ويستمتع بزينة الله التى أخرج لعباده، بل أنكر أشد الإنكار على من زعم حرمة ذلك على الناس ﴿قل: من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟﴾ (الأعراف: ٣٢).

ولكنه حين أباح هذه للإنسان لم يرضها له غاية ورسالة، بل جعلها له وسيلة وآلة، إن الدنيا بكل ما فيها من طيبات وخيرات خلقت للإنسان. أما الإنسان نفسه، فقد خلق لما هو أعظم من الدنيا، خلق لله الذى سخر له هذه الدنيا، وأعده للخلود في دار أخلد وأبقى.

الإنسان الذى همه الشهوة والمتعة، يهبط بنفسه من درجة المخلوق المستخلف من الله إلى درك الحيوان الذى لا همّ له إلا بطنه ومتعته. وهذا ما ذم به الله الكفار الحائدين عن الصراط المستقيم بقوله: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (سورة محمد: ١٢).

الأكل والشرب والمتعة للإنسان أداة ووسيلة، حتى يستطيع أن يقوم بعمله، ويؤدي رسالته فقد خلق الله الناس ليعملوا، أو كما قال القرآن ﴿ليبلوهم أيهم أحسن عملا﴾.

إنه ليس مجرد العمل الحسن، بل العمل الأحسن: الأفضل والأمثل دائماً.

فالسباق بين العاملين ليس بين حسن وسيء، بل بين حسن وأحسن.

والإنسان المؤمن دائماً ينبغي أن ينزع إلى ما هو أحسن في كل شيء، كما نبهه على ذلك القرآن.

فهو يتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه ﴿اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ (الأعراف: ٣).

﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ (الزمر: ١٨).

وهو يدفع السيئة بالتى هي أحسن ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن﴾(فصلت : ٣٤).

وهو يجادل المخالفين بالتي هي أحسن ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل : ١٢٥).

وهو يستثمر أموال اليتامى بالتي هي أحسن ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ (الأنعام : ١٥٢).

ومعنى هذا : أنه إذا كانت هناك طريقتان لدفع السيئة، أو لجدال المخالفين، أو لتنمية مال اليتيم : إحداهما حسنة، والأخرى أحسن منها.

فالإنسان المؤمن مأمور ومطالب أن يستخدم الطريقة التي هي أحسن وأفضل، ومقتضى هذا أن عليه أن يفكر ويبحث أبداً عن النهج الأفضل، والوسيلة الأمثل، ولا يرضى لنفسه إلا دون والأدنى.

وإن هذه العبارة «أحسن عملا» تكررت في القرآن عدة مرات في مقام التعليل.

ففي سورة الملك يقول سبحانه ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ (الملك : ١، ٢).

وفي سورة الكهف يقول عز وجل ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ (الآية : ٧).

تفصيل للمقصد الإلهي من خلق الإنسان :

وبهذا كله نعلم من صريح آيات القرآن الكريم : أن الإنسان هو المقصود من خلق العالم كله، وأن الله خلق هذا الكون الكبير بسماواته وأرضه، ليقوم هذا الإنسان المستخلف من الله بوظيفته في الأرض، ورسالته في الوجود، وهى رسالة تتركب من عنصرين أساسيين :

(١) عنصر معرفي علمي، وهو أن يعرف الإنسان ربه ورب هذا الكون معرفة صحيحة، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولن يتم له ذلك إلا إذا عرف نفسه، وعرف الكون من حوله.

(٢) وعنصر عملي سلوكي، وهو أن يعمل فيحسن العمل، بل يجتهد أن يكون (أحسن عملا).

وقد فصل بعض أئمة المسلمين هذا العمل، أو العمل الأحسن المقصود من خلق الإنسان، وهو ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ، ١١٠٨م) في كتابه القيم (الذريعة إلى مكارم الشريعة) فقال :

الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر كما قيل :

فالأرض من تربة والناس من رجل.

وإنما تشرف بأن يوجد كاملا في المعنى الذى وجد لأجله.

وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم أو هدى بعض الخلق إلى ايجاده وصنعه فإنه موجد لفعل يختص به.

كالبعير إنما يختص به ليبلغنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس.

والفرس ليكون لنا جناحاً نطير به.

والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما.

والباب لنحرز به البيت.

فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة :

١ - عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى : ﴿واستعمركم فيها﴾ (سورة هود : ٦١) وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره.

٢ - وعبادته سبحانه المذكورة في قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (سورة النور : ٥٥). وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه.

٣ - وخلافته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ (سورة الذاريات : ٥٥). وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري سبحاه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة، هى : الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في

الحكم، والاحسان ولافصل، والقصد منها أن يبلغ بذلك إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى.

وكل ما أوجد لفعلٍ ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى، ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو، والسيِّف للعمل المختص به في القتال. ومتى لم يوجد فيه المعنى الذى لأجله أوجد كان ناقصاً، فأما أن يطرح طرحاً أو يرد إلى منزلة النوع الذى هو دونه، كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة، أو أعد أكولة. والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه، فالبهيمة خير منه. ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين ثكلوا هذه الفضيلة: ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾[19] (سورة الفرقان: ٤٤). أ هـ.

---

(١٩) الدريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص٣١-٣٢، ط. دار الكتب العلمية بيروت.